الباب الثاني

رعاية كبار السن ومعاملتهم

- مقدمة الباب الثاني
- الفصل الخامس: التعريف برعاية كبار السن
- الفصل السادس: أسس الرعاية ومناهج البحث فيها
- الفصل السابع: الرعاية وبر الوالدين
- الفصل الثامن: تحديات رعاية كبار السن ومواجهتها
- الفصل التاسع: الضغوط النفسية في الرعاية
- الفصل العاشر: الإساءة إلى كبار السن وعقوق الوالدين

مقدمة الباب الثاني

تقوم رعاية كبار السن في الأسرة على أساس رعاية القوي للضعيف فيها حتى يقوى أو يموت، ففي **المرحلة الأولى** من دورة حياة الأسرة يكون الآباء أقوياء والأبناء ضعافاً لصغر سنهم، فيُسأل الآباء عن تنشئة الأبناء وحسن رعايتهم، وفي **المرحلة الأخيرة** تنقلب الآية، ويصبح الأبناء أقوياء والآباء ضعافاً لكبر سنهم وشيخوختهم، فيُسأل الأبناء عن رعاية الوالدين. وقد عبَّر الإسلام عن هذه الحقيقة، فقال تعالى مخاطباً الآباء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم] ومخاطباً الأبناء ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾[الإسراء].

فالأسرة –لاسيما الأسرة المسلمة– ليست لتنشئة الأطفال فحسب، بل أيضاً لرعاية كبار السن وحمايتهم، وتوفير الحياة الإنسانية الكريمة لهم. وهذا ما يجعلنا نؤكد على أن رعاية كبار السن وظيفة أساسية من وظائف الأسرة، لأنهم أصحاب الفضل في بناء هذه الأسرة، وتنشئة الأبناء حتى غدوا أقوياء راشدين (مرسى، ٢٠٠٣).

وتقوم رعاية كبار السن في الأسرة على أساس من الواجبات والحقوق المتقابلة، فتنشئة الأطفال واجب على الوالدين وحق لأبنائهما، فإذا قام الوالدان بواجباتهما حصل الأبناء على حقوقهم، ونشأوا نشأة صالحة، وعاشوا في سلام ووئام مع أنفسهم ومجتمعهم، وإذا قصرا انجرف الأبناء واضطربت شخصياتهم. وكذا رعاية كبار السن واجب على الأبناء وحق لوالديهم، فإذا قام الأبناء بواجباتهم في الرعاية، حصل الوالدان على حقوقهما، وعاشا في أمن وأمان في مرحلة الكبر والعجز والمرض، أما إذا قصروا في الرعاية تعس الوالدان وشقيا بالحرمان من حقوقهما، وبظلم

أبنائهما لهما. فسعادة الأبناء وتعاستهم مرهونتان بجهود الآباء في تنشئتهم، وسعادة الوالدين وشقاؤهما مرهونتان بجهود الأبناء في رعايتهما وبرهما أو عقوقهما.

ومع التطور العلمي في علوم الشيخوخة الطبية والنفسية والاجتماعية غدت رعاية كبار السن علما يُدرَّس، ومهارات تكتسب، وفنوناً تمارس، واستراتيجيات يخطط لها. ولا يكفي فيها المعرفة الدارجة، والشفقة والرحمة بكبير السن. فإذا رغب الأبناء في توفير رعاية أفضل Super Caregiving لوالديهم، عليهم دراسة فلسفة الرعاية وأسسها ومناهجها، والتدرب على مهاراتها وفنونها. **فالعلم إمام العمل الجيد.**

وقد عُني الإسلام برعاية كبار السن من حوالي ١٥٠٠ سنة، وجعلها عقيدة، وربطها بعبادة الله. فقال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

وشرح رسول الله ﷺ بر الوالدين وأعماله وفضله، وعقوق الوالدين وأشكاله وعقابه، وحث الأبناء على بر الوالدين، ونهاهم عن عقوقهما، وقال ﷺ قولاً بليغاً في الحث على البر والنهي عن العقوق، وهو في لغة العلوم الحديثة حث على رعاية الوالدين، ونهى عن الإساءة إليهما أو الإهمال في رعايتهما.

وهذا ما جعلنا نتعمق في دراسة بر الوالدين، وربطه برعاية كبار السن، ونتعمق أيضا في عقوق الوالدين، وربطه بالإساءة إلى كبار السن في الأسرة، ونؤصل رعاية كبار السن إسلامياً، ونناقشها وفق عقيدتنا وعاداتنا وتقاليدنا الاجتماعية، فلا نقف عند الدوافع الدنيوية في الرعاية، وهي دوافع إنسانية نبيلة، بل نسعى لتوضيح دوافعها الدينية التي أعطاها الإسلام مساحة كبيرة

في عقيدة المسلم وعباداته. فقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦].

ومما لا شك فيه فإن الدوافع الدينية لا تقل قوة عن الدوافع الدنيوية في رعاية كبار السن، إن لم تكن أقوى منها في المجتمعات الإسلامية، التي يؤمن الناس فيها بما أُنزل على محمد ﷺ من تشريعات، تدعوهم إلى البر بالوالدين وتنهاهم عن عقوقهما، ولا يجوز من الناحية العلمية أن نناقش رعاية كبار السن في هذه المجتمعات في معزل عن هذه التشريعات السماوية.

ونتناول في هذا الباب رعاية كبار السن، فنعرض في الفصل الخامس التعريف برعاية كبار السن، وفي الفصل السادس أسس الرعاية ومناهج البحث فيها، وفي الفصل السابع الرعاية وبر الوالدين، وفي الفصل الثامن تحديات رعاية كبار السن ومواجهتها، وفي الفصل التاسع الضغوط النفسية في الرعاية، وفي الفصل العاشر الإساءة إلى كبار السن وعقوق الوالدين.

الفصل الخامس
التعريف برعاية كبار السن
مقدمة

رعاية كبار السن كالتنشئة الاجتماعية للأطفال عملية تربوية معقدة ذات أبعاد كثيرة، وتتأثر بعوامل عديدة في كبير السن وظروفه الصحية والنفسية والاجتماعية، وظروف الأسرة التي يعيش فيها، والمجتمع الذي يأويه. ويسهم في رعاية كبير السن جهات كثيرة؛ منها الأبناء والأهل والأصدقاء والجيران ووسائل الإعلام ودور العبادة، ومؤسسات المجتمع المدني الحكومية والأهلية.

ومع هذا فإن الأسرة هي المسئول الأول عن رعاية كبير السن وحمايته وعلاجه. فقد قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب:٦] وتجمع نتائج الدراسات والنظريات العلمية التي سنعرض لها في هذا الفصل والفصول التالية على «**عدم إبعاد كبير السن عن أسرته**» إلا إذا كان وجوده فيها خطراً عليه أو على المجتمع، أو كان في إبعاده عنها تحقيق مصلحة له.

فوجود كبير السن في أسرته مع أبنائه وأهله وجيرانه من أهم عوامل سعادته، وإبعاده عنها من أهم عوامل تعاسته وشقائه واضطرابه وأمراضه. فالأسرة هي المحضن الآمن للضعفاء فيها: الطفل، وكبير السن، والنساء.

ونتناول في هذا الفصل التعريف بعملية رعاية كبار السن، وتحليلها إلى عمليات متكاملة ومتداخلة، ثم نبين حاجة كبير السن إلى كل عملية من هذه العمليات، وأساليب معاملة الأبناء للآباء.

تعريف الرعاية وتحليلها

يُقصد برعاية كبار السن Elders caregiving المعاملة الطيبة لكبير السن في الأسرة، واتجاهات أبنائه وأهله نحو رعايته، وجهودهم فيها، واهتمامهم بها. وتتكون الرعاية من خمس عمليات رئيسة متداخلة ومتكاملة هي:

مساندة كبير السن في السراء والضراء، **وتشجيعه** على ممارسة أدواره الاجتماعية، **ومساعدته** على أمور معيشته وإشباع حاجاته وعلاج أمراضه، والتغلب على جوانب ضعفه وقصوره، **وحمايته** من كل ما يؤذيه جسمياً ونفسياً واجتماعياً، **وخدمته** عند العجز عن قضاء حاجاته الأساسية. وفيما يلي تعريف بهذه العمليات الخمس:

١-المساندة Social Support:

يقصد بها مساندة كبير السن نفسياً واجتماعياً في مواقف الحياة اليومية، وتقديم الدعم المعنوي له في السراء والضراء، فيزداد استمتاعاً بالنجاح في السراء، ويزداد تحملا وصبراً في الضراء والأزمات، حيث تسهم المساندة من الأهل في شد أزر كبير السن، ودفعه إلى الجد والاجتهاد في الحياة.

وتقوم مساندة الوالدين على أساس من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]. فالإسلام كما يقول الأستاذ عباس العقاد –رحمه الله– على كراهته الذل لأتباعه، فإنه يستحب منهم الذل في الرحمة بالوالدين، لأن الذل هنا زيادة في الرحمة، ويأتي من كرامة في النفس، ولا يأتي من هوان فيها (عن العبادي، ١٩٧٩: ٤٤).

وعملية مساندة الوالدين من عمليات الرعاية السهلة، ومع هذا فإنها عملية مهمة في تنمية الصحة النفسية والجسمية في مرحلة الكبر، لأنها تسعد الوالدين، وتقوي مناعتهما الجسمية والنفسية، وتؤخر عمليات الشيخوخة المرضية.

وتتضمن أساليب المساندة الاجتماعية في الكبر عشرة أساليب في معاملة الوالدين، خمسة منها «**تحت افعل**»، وخمسة أخرى «**تحت لا تفعل**». **والأساليب التي «تحت افعل» هي:**

أ- **الابتسامة والبشاشة لهما** في كل وقت، وتقديم الهدايا لهما في المناسبات، وإنفاذ عهدهما،وإجابة طلبهما على الفور قدر الاستطاعة، وإكرام صديقهما.

ب- **الإحسان إليهما وإضحاكهما،** وإدخال السرور عليهما، وعمل ما يرضيهما ويسعدهما، ومصاحبتهما في الدنيا معروفا، وطاعتهما في كل شيء في غير معصية.

جـ- **التعاطف معهما في السراء،** وتهنئتهما في النجاح والشفاء، ومشاركتهما الفرح ليزدادا فرحاً بفرح أبنائهما معهما.

د- **التعاطف معهما في الضراء،** ومواساتهما في الفشل والإحباط والمرض، ومشاركتهما مشاعر الحزن والغضب، وشد أزرهما في مواقف الشدة، ليزدادًا تحملاً وثباتاً وصبراً في هذه المواقف الصعبة.

هـ- **الاعتراف بفضلهما،** والتعبير لهما عن الحب والمودة والاستحسان والتقدير. فيعبر الابن (أو الابنة) لوالديه عن حبه لهما بالقول ، ويسلم عليهما، ويقبل رأسهما ويحتضنهما، وغير ذلك من كلمات المودة وعبارات التقدير، وحركات السلام والحنان والرضا المتبادل.

أما الأساليب التي «تحت لا تفعل» فهي:

أ- لا يتذمر منهما، ولا يقل لهما أف مهما كانت تصرفاتهما.

ب- لا ينهرهما مهما اختلف معهما في الرأي، ومهما غضب من سلوكياتهما وقراراتهما وأفكارهما.

جـ- لا ينتقدهما مهما كانت أخطاؤهما، ولا يظهر عيوبهما ولا يضخمها، ولا يحقرهما بسببها.

د- لا يبكيهما، ولا يغضبهما ولا يعمل ما يحزنهما، ولا يفضل زوجته وأبناءه عليهما.

هـ- لا ينقطع عن زيارتهما مهما غضب منهما، ولا يخاصمهما مهما كانت قسوتهما عليه، لاسيما إذا كانا -أحدهما أو كلاهما- مريضين أو عاجزين.

٢-التشجيع Encouragement:

ويقصد به تشجيع كبير السن على ممارسة أدواره الاجتماعية، والقيام بالأعمال التي يقدر عليها، ويستمتع بها، ويحقق ذاته فيها، وتجعله يشعر بالكفاءة والجدارة، ويحصل على الاستحسان والتقدير من الأهل والمجتمع. وتتضمن عملية التشجيع مساندة كبير السن في السراء والضراء، وتسهم معها في إشباع حاجاته النفسية والاجتماعية.

ولا تحتاج عمليتا المساندة والتشجيع من الأبناء الكثير من الوقت والجهد والمال، ومع هذا فإنهما عمليتان أساسيتان في إسعاد الوالدين، وتنمية صحتهما النفسية والجسمية في مرحلة الكبر.

ويتحقق تشجيع الابن (أو الابنة) لوالديه في الآتي:

أ- الاهتمام بما يعمله الوالدان، واستحسان إنجازاتهما وتقديرها، وتيسير سبل استمرارهما في العمل، أو حصولهما على عمل بديل، أو ممارسة الهوايات والأعمال التطوعية.

ب- الحرص على مشاركتهما في الأنشطة الاجتماعية والزيارات والرحلات والحفلات والندوات والمحاضرات وغيرها.

جـ- احترام أدوارهما الاجتماعية في الأسرة (أب/ أم، وجد/ جدة) وإشراكهما في تربية الأحفاد وتصريف شئون الأسرة الأصلية والفرعية.

د- التشاور والحوار معهما في القرارات الأسرية والاجتماعية، وطلب النصيحة منهما في حل المشكلات، والعمل بتوجيهاتهما في غير معصية.

هـ- مصاحبتهما في زيارات الأهل والجيران وفي التواصل مع الأرحام، وفي الذهاب إلى المساجد، وفي الحج والعمرة والرحلات، وغيرها من الأعمال الصالحة التي تسعدهما في الدنيا، وتكون في ميزان حسناتهما في الآخرة.

٣-المساعدة Assistance:

ويقصد بها مساعدة كبير السن مالياً إذا نقص دخله، وأصبح في حاجة إلى معاونة الأهل له في إشباع حاجاته المعيشية، من مأوى وملبس ومأكل ومشرب وعلاج، فيحصل عليها دون منٍّ أو أذى، وتُقدم له بطريقة كريمة، فيأكل الأب من طعام ابنه، ويأخذ من ماله دون حرج. فالابن وماله ملك لأبيه. ولا تشعر الأم بالحرج، إذا سهرت ابنتها في تمريضها، أو اشترى ابنها لها الدواء، أو صحبها إلى المستشفى، فالابنة والابن من صنع أمهما، وعليهما رد جميلها معهما وهما صغيران.

وتتضمن مساعدة كبير السن مساندته في مواقف العوز والحاجة، وتشجيعه على القيام بما يقدر عليه من العمل، لتخفيف مشاعر الضعف وتحويلها إلى مشاعر قوة وتأثير، فيتقوى بمساعدة أهله ومساندتهم، وتشجيعهم له، فهم بعد الله سنده وعزوته في الحياة. وتتحقق مساعدة الأبناء لوالديهم في أعمال كثيرة من أهمها:

- تقديم المال لهما عند الحاجة بنفس راضية.
- دفع تكاليف الحج والعمرة والرحلات كلما كان ذلك متيسراً.
- شراء ما يحتاجان إليه في بيتهما ولمعيشتهما.
- مساعدتهما في أعمال المنزل وقضاء حوائجهما المعيشية.
- متابعة برامجهما العلاجية في مراجعة الطبيب والفحوصات وشراء الدواء، ودفع فواتير الكهرباء والماء والتليفونات وغيرها.
- سداد الديون والأقساط عنهما.

٤- الحماية Protection:

ويقصد بها الجهود التي تُبذل في المحافظة على كبير السن من كل ما يؤذيه في نفسه أو ماله أو عرضه أو دينه. فالأهل هم أولى الناس بكبير السن، فلا يؤذونه، ولا يهملون في رعايته، ولا يسمحون لأحد بإيذائه أو الإساءة إليه.

وتتحقق حماية كبير السن في مساندته في السراء والضراء، وتشجيعه على ممارسة أدواره الاجتماعية، ومساعدته في العوز والحاجة. فالرعاية والقيام بالواجبات نحو كبير السن من أهم عوامل حمايته. وكان الله عليما حكيما عندما أمر المسلمين بحماية الوالدين في الكبر من أبسط أمور الأذى النفسي، وهو التأفف من أقوالهما أو أفعالهما. فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[الإسراء]، فحماية كبير السن من كل ما يؤذيه من أهم الأعمال التي حث الإسلام عليها في بر الوالدين «ولو علم الله -كما قال رسول الله ﷺ- شيئاً أدنى من الأف لنهى عنه سبحانه» (رواه الديلمي).

٥- الخدمة Service:

ويقصد بها خدمة كبير السن الذي أقعده المرض عن الحركة، أو أعجزته الشيخوخة عن قضاء حاجاته الأساسية Basic needs، فيكون أبناؤه عكازه الذي يتوكأ عليه، ويده التي يستحم ويأكل ويلبس بها، ويقضى حاجاته في النظافة والاستنجاء والوضوء والصلاة. فخدمة كبير السن عملية صعبة وشاقة، تكلف الأبناء الكثير من الوقت والجهد والمال، وتلزمهم بمسئوليات مجهدة وأعمال كثيرة، قد تشغلهم عن عملهم ورعاية أنفسهم وأهليهم، لأنها خدمة فعلية مباشرة.

وقد جعل الإسلام ثواب خدمة الوالدين يعادل ثواب الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله. فقد أتى رجل رسول الله ﷺ وقال: أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه. قال ﷺ: «**هل بقي من والديك أحد؟**» قال: أمي. قال: «**فاسأل الله في برها، فإذا فعلت فأنت حاج ومعتمر ومجاهد**» (رواه أبو يعلي والطبراني).

وجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أبايعك على الهجرة والجهاد. قال ﷺ: «**هل من والديك أحد حيّ؟**». قال: نعم كلاهما. قال: «**فتبغي الأجر من الله تعالى؟**». قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك وأحسن صحبتهما**» وفي رواية أخرى «**ففيهما فجاهد**» (رواه مسلم).

ونستشف من هذه الأحاديث الشريفة أن النبي ﷺ جعل خدمة الوالدين وصحبتهما جهاداً، لأن في الجهاد –كما جاء في كتاب بر الوالدين للطرطوشي– تحمل المشقات وكراهة النفوس، ومثله في خدمة الوالدين، لأن معظم خدمتهما وغسلهما، وإماطة الأذى عنهما، وقضاء حاجاتهما، وصنع الطعام لهما، وغسل ملابسهما، والاهتمام بهما مستكره على النفوس، وثقيل على الطباع في غالب العادة (الطرطوشي، ت ت: ١٣٥).

وتتحقق خدمة كبير السن في قيام الأبناء بالآتي:

- معاونته في قضاء حاجاته الأساسية: في الذهاب إلى الحمام والنظافة والاستحمام، وتمشيط شعره، وتنظيف أسنانه.
- مساعدته في الوضوء وأداء الصلاة في أوقاتها، وفق ما يقدر عليه.
- مساعدته في تناول الطعام والشراب والدواء.
- خدمته في ارتداء ملابسه وتبديلها وترتيبها وغسلها.
- معاونته في النهوض من السرير والحركة في البيت وخارجه.

- مصاحبته في الذهاب إلى الطبيب والسوق والزيارات، والترويح عن نفسه.
- التواجد إلى جواره، وتلبية طلباته بالليل والنهار.
- تخفيف آلامه في المرض والعجز والضعف.
- إدخال السرور عليه ورفع روحه المعنوية في المرض والعجز، وتشجيعه على الصبر والاحتساب.

ديناميات الخدمة: وخدمة كبير السن عملية شاقة على نفسه هو، لأنه لا يحتاجها إلا إذا أقعده المرض أو الاضطراب العقلي، وجعله عاجزاً لا حول له ولا قوة، فيقبل خدمة الآخرين له على مضض. فالحاجة مرة، والعجز مؤلم لمن كان قادراً في الماضي ثم أقعده المرض.

وتألم كبير السن من خدمة الآخرين له، وحزنه على نفسه يُلْقى عبئًا إضافياً على مَنْ يرعاه، لأن الابن (أو الابنة) يحزن لحزن والديه، وتألمهما من المرض والعجز، فتزداد همومه وتعبه في الرعاية. وكان الله عليماً حكيماً في أمره بخفض الجناح للوالدين الكبيرين، وحمايتهما من الشعور بذل الحاجة ومهانة الضعف والعجز. فقال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]. فخضوع الابن لأبيه في هذه المواقف، يجعله يخدم –وهي عملية شاقة– بنفس راضية وبأسلوب راق، فيه خضوع الشاب القوي لأبيه (أو أمه) الضعيف العاجز. فقد كان القوي ضعيفاً، والضعيف قوياً، وليذكر الشاب الذي يرحم والديه، ويخفض لهما جناح الذل من الرحمة، أنهما –أي والديه– ربياه وهو صغير، وخدماه وهو ضعيف، فلا يمنن ولا يجحد. فكما تدين تدان.

تصنيف كبار السن وفق الحاجة إلى عمليات الرعاية

ينقسم كبار السن وفق حاجتهم إلى عمليات الرعاية الخمسة السابقة إلى ثلاث فئات نلخصها في الآتي:

أ-كبير السن العادي أو الوالد العادي Normal Parent:

ونقصد به كبير السن السهل أو الوالد السهل Easy Parent في المعاشرة، البسيط في التعامل، الآلف والمألوف، الراضى في كل الأحوال، القادر على رعاية نفسه، وتحمل مسئولياته، والإنفاق على نفسه ومعيشته وعلاجه، فلا يحتاج من أبنائه إلا المساندة والتشجيع وبعض المساعدات البسيطة، التي لا تكلفهم إلا القليل من الوقت والجهد والمال.

ب-كبير السن غير العادي أو الوالد غير العادي Abnormal Parent:

ونقصد به كبير السن الصعب أو الوالد الصعب Difficult Parent في المعاشرة، المتسلط في التعامل، الساخط في كل الأحوال، المتقلب المزاج، الغريب في الطباع، المدمن على بعض العادات السيئة في الشراب والطعام والإنفاق، والذي قد يتدخل في إفساد ابنه على زوجته، أو ابنته على زوجها. هذا الكبير في السن وإن كان قادراً على رعاية نفسه، والإنفاق على معيشته وعلاجه، فإن رعايته صعبة، وفيها مشقة بسبب تعقد شخصيته Difficult personality، وصعوبة التعامل معه، واضطراب علاقته بأبنائه وأحفاده وأهله وجيرانه (Lebow & Kane, 1999).

جـ-كبير السن العاجز أو الوالد العاجز Disable Parent:

ونقصد به كبير السن الصعب أو الوالد الصعب Difficult Parent في رعايته بسبب المرض المزمن والقعود عن الحركة، أو الاضطراب العقلي، أو فقدان السمع والبصر، وغيرها من الحالات التي تجعله -أي كبير السن- عاجزاً عن رعاية نفسه وعن الحركة والانتقال، وقضاء الحاجات الأساسية،

والتواصل مع الناس، أو تجعله مخرفاً غير مسئول عن أفعاله، وفي حاجة إلى من يخدمه على مدار ٢٤ ساعة ولمدة طويلة Long-term caregiving.

والجدول الآتي يبين حاجات كبار السن في الفئات الثلاث من عمليات الرعاية

(الجدول رقم١) توزيع فئات كبار السن وفق حاجاتهم إلى الرعاية

عمليات الرعاية	نسبة المحتاجين إلى عمليات الرعاية من كبار السن في كل فئة		
	كبير السن العادي	كبير السن غير العادي	كبير السن العاجز
١- المساندة	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠
٢- التشجيع	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠
٣- المساعدة	٪٢٥	٪٥٠	٪١٠٠
٤- الحماية	--	٪٥٠	٪١٠٠
٥- الخدمة	--	--	٪١٠٠

ونجد في الجدول السابق أن كبار السن العاديين يحتاجون جميعاً إلى المساندة والتشجيع من الأبناء، والقليل منهم يحتاجون إلى المساعدة أحياناً، أما كبار السن غير العاديين فهم كالعاديين في حاجة إلى المساندة والتشجيع، والكثيرون منهم في حاجة إلى المساعدة والحماية من أن يسيئوا إلى أنفسهم أو إلى الآخرين. والفرق بين العاديين وغير العاديين هو أن مساندة الوالدين العاديين وتشجيعهما ومساعدتهما سهلة، أما غير العاديين فصعبة، وفي حاجة إلى أن يجاهد الابن نفسه، ويلزمها برعاية والديه غير العاديين، ويتحمل أذاهما ويتسامح مع أخطائهما.

أما كبار السن العاجزين فجميعهم في حاجة إلى المساندة والتشجيع، والمساعدة والحماية والخدمة من أبنائهم ما بقى من حياتهم، وهي مهمة شاقة على الأبناء والآباء، وتتطلب من الابن (أو الابنة)، أن يجاهد نفسه في خدمة أبيه أو أمه، وأن يتحمل مشقتها وضغوطها النفسية والاجتماعية والجسدية والمالية التي قد تستمر مدة طويلة.

الفرق بين الرعاية والتنشئة الاجتماعية

كبار السن كالأطفال ضعاف في الأسرة، وفي حاجة إلى الرعاية من الأهل، إلا أن رعاية كبار السن تختلف عن تنشئة الأطفال في عدة جوانب نلخصها في الآتي:

١- تختلف منطلقات رعاية كبار السن عن منطلقات التنشئة الاجتماعية للأطفال: فرعاية كبير السن تنطلق عادة من المساندة والتشجيع إلى المساعدة والحماية ثم الخدمة، لأن كبير السن قادر على رعاية نفسه بنفسه، وتحمل مسئولياته في مرحلة كبر السن المبكرة، ثم يزداد ضعفه وتتدهور قدراته كلما تقدم به السن، ويحتاج إلى الحماية والخدمة. أما تنشئة الطفل فتنطلق من الخدمة والحماية إلى المساعدة والمساندة والتشجيع، فالطفل يأتي إلى الحياة ضعيفاً لا حول له ولا قوة، ويخدمه والداه ويحميانه، ثم يتحول تدريجياً من الضعف إلى القوة كلما تقدم به السن، ولا يحتاج إلى الخدمة والعناية بقدر ما يحتاج إلى المساندة والتشجيع في مراحل حياته التالية.

وتحول الإنسان في حياته من الضعف إلى القوة ثم إلى الضعف ثانية تحول طبيعي Normal transition، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم].

٢- تختلف أهداف رعاية كبير السن والدوافع إليها ومشاعر الراعي (من يقوم بالرعاية Caregiver) عن أهداف التنشئة الاجتماعية والدوافع

إليها ومشاعر المربي: فأهداف التنشئة الاجتماعية كما هو معروف هي: تنمية الطفل حتى يقوى، ويقدر على رعاية نفسه بنفسه، وتدفع إليها دوافع فطرية في معظمها عند الأم (دافع الأمومة) والأب (دافع الأبوة)، فيفرحان به وهو يكبر ويترعرع من الطفولة فالمراهقة ثم الشباب.

أما رعاية كبير السن فتهدف إلى توفير الحياة الإنسانية الكريمة له إلى أن يتوفاه الله، وتُوَدّعه الوداع الأخير The long good by، وتدفع إليها دوافع مكتسبة في معظمها، وهي دوافع البنوة ورد الجميل للوالدين عند المسلمين وغير المسلمين، ودوافع عبادة الله في بر الوالدين وصلة الرحم عند المسلمين فقط.

وسواء كانت الدوافع إلى رعاية الوالدين دنيوية أو دينية فإن الأبناء يقومون بها وهم يتابعون ضعف والديهما سنة بعد أخرى، وينتظرون موتهما. وهناك فرق كبير بين مَنْ يرعى ويفرح بنمو وحياة مَنْ يرعاه، وبَيْن مَنْ يرعى وينتظر موت مَنْ يرعاه. وصدق عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عندما جاءه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين، أمي تقضي حاجتها على يَدَي، فهل بررتها؟ قال: لا. أنت كنت تقضي حاجتك على يديها، وهي تتمنى بقاءك، وهي تقضي حاجتها على يدك وأنت تتمنى موتها.

٣- تختلف مشاعر كبير السن في الرعاية عن مشاعر الطفل في التنشئة الاجتماعية: فالطفل في ضعفه يشعر بالقوة وهو ينشأ تدريجياً، حيث تنمو قدراته، ويزداد اعتماده على نفسه، وتأثيره فيمن حوله، وهو يتحول من الطفولة البريئة إلى المراهقة المزدهرة فالشباب الناضج.

أما كبير السن فيشعر بالتدهور Deterioration التدريجي كلما تقدم في السن، ويحزن على نفسه بعد أن ولى شبابه، وضعفت قدراته، ووهنت صحته. فالشيخوخة المرضية قادمة مهما تأخرت، والموت لا مفر منه مهما طال العمر. (Berman,2001:163).

٤- تختلف خدمة الطفل الرضيع في التنشئة عن خدمة كبير السن في الرعاية: فالطفل الرضيع سهل في حمله وتغذيته وتنظيفه وتبديل ملابسه، وتقل أعباء خدمته في قضاء حاجاته الأساسية كلما نما وترعرع. أما كبير السن العاجز فمن الصعب خدمته ونقله من مكان إلى آخر، وليس من السهل العناية به في قضاء حاجاته الأساسية ونظافته وتبديل ملابسه، وتناول الدواء، وتزداد أعباء خدمته كلما تقدم في السن واشتد مرضه وطال عمره.

٥- يختلف الأطفال عن كبار السن في الحاجة إلى الخدمة: فجميع الأطفال يولدون عاجزين تماما، وفي حاجة إلى خدمة الوالدين والعناية بهم في كل شيء حتى يكبروا، أما كبار السن فيدخل معظمهم مرحلة الكبر أصحاء جسمياً ونفسياً، وقد يموتون دون أن يصيبهم العجز، ولا يحتاجون إلى خدمة الأبناء لهم. فالدراسات تشير إلى أن ١ من كل ٥ من كبار السن في حاجة إلى الخدمة المباشرة (Davidson & Moore,1992)، أي أن حوالي ٨٠٪ من كبار السن في حاجة إلى رعاية سهلة، لا تتعدى تقديم المساندة والتشجيع والمساعدة من أبنائهم، وقد يموت الكثيرون منهم وهم بصحة جيدة، ولا يجد أبناؤهم مشقة في رعايتهم.

أساليب الأبناء في معاملة كبار السن

يستخدم الأبناء عدة أساليب في معاملة الوالدين نلخصها في الآتي:

١-أسلوب الإهمال:

ويقصد به تقاعس الابن (أو الابنة) عن رعاية والديه، فلا يسأل عنهما، ولا يزورهما، ولا يعرف شيئاً عن حياتهما ومعيشتهما وهمومهما ومشكلاتهما، وكأنه شخص غريب أو قريب لهما من بعيد، لا يعنيه أمرهما ولا يكترث بما يحدث لهما، وإذا قلت له والدك (أو والدتك) في المستشفى أجابك بهدوء "ربنا يشفيه". وإذا سألته ألا تزور والدك؟، أجاب ببرود "إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة، لأني مشغول جداً". فهو مشغول بأموره

الشخصية عن مرض والده أو والدته، وهو عاق لوالديه لأن الإهمال من العقوق.

٢-أسلوب التذبذب:

ويقصد به اهتمام الابن (أو الابنة) بوالديه أحياناً، وإهماله لهما أحياناً أخرى، فهو أحياناً يزورهما، ويتواصل معهما، ويساندهما ويشجعهما، ويتواجد في بيت العائلة، ثم ينقطع عنهما أياماً أو شهوراً، ولا يتواصل معهما ولا يزورهما لفترات طويلة، إما لانشغاله بأموره عن والديه، أو بسبب زعله منهما، وغضبه عليهما، وخصامه لهما أو لأحدهما، أو بسبب عدم إدراكه لحقوقهما عليه.

ولا يلتزم الابن (أو الابنة) المتذبذب في معاملة والديه بواجباته نحوهما فهو يقوم بها كلما تيسر له ذلك، لكنه لا ينتظم في زيارتهما، ولا يفي بعهوده معهما، ولا ينفذ أوامرهما بأمانة، ويماطل في تلبية طلباتهما، مما يجعلهما يغضبان من طريقته في التعامل معهما، فلا يطلبان منه شيئاً، ولا يعتمدان عليه في أي شيء.

وقد يقوم هذا الابن ببعض واجباته كالتزام اجتماعي وفي حدود الرسميات؛ فهو إذا زار والديه لا يمكث عندهما إلا قليلا، ولا يتحدث معهما في الهاتف إلا لفترات قصيرة، ولا ينغمس في أمورهما المعيشية، ولا يخلص في خدمتهما، ولا يحاورهما بمودة ورحمة، ويتذمر منهما، ويتأفف منهما، ويقول لهما قولا كريما أحيانا ويغلظ القول لهما أحيانا أخرى، فيرضى عنه والداه أحيانا ويسخطان عليه أحيانا أخرى.

ويعترف الابن (أو الابنة) المتذبذب في معاملة والديه بتقصيره، ويعتذر ويندم على ذلك، لكنه يعود إلى التقصير والاعتذار مرات ومرات. فهو عاق لوالديه بدرجة أقل من الابن (أو الابنة) المهمل في رعاية والديه.

٣-أسلوب التسلط:

ويقصد به سيطرة الابن (أو الابنة) على والديه ومعاملتهما كطفلين، لا يحسنان التدبير ولا التفكير، ويفرض سلطته عليهما، ويتخذ القرارات عنهما، ويفرض رأيه عليهما، ويأمرهما ويتحكم فيهما، ويستخف بمشورتهما، ولا يطيعهما، وينتقد أفكارهما، ويسخر من قراراتهما، ويطلب منهما الإذعان لما يريد، والخضوع لتوجهاته الفكرية والسلوكية.

وقد يقبل الوالدان تسلط الابن (أو الابنة) ويخضعان له في كل شيء لاسيما إذا كان هو الابن (أو الابنة) الوحيد، صاحب السلطة عليهما منذ صغره، لكن لا يقبل آباء وأمهات كثيرون هذا الأسلوب، ويقاومون تسلط الأبناء عليهم، ويتشاجرون معهم، ويلجأون إلى الخُلْفة كحيلة نفسية دفاعية، لإثبات الذات، من خلال المثل الدارج "خالف تُعْرف". وإذا سألت الابن (أو الابنة) المتسلط "لماذا لا تطيع والديك؟"، أو لماذا لا تشاورهما؟" أجاب: "لأنهما كبيران، وأفكارهما قديمة، فقد ولى زمانهما" وفي هذا عقوق وإساءة إلى الوالدين، وفيه حرمان لهما من حقوقهما الإنسانية.

٤-أسلوب القسوة:

ويقصد به معاملة الابن (أو الابنة) لوالديه بغلظة وشدة وتسلط وعنف، فينهرهما إذا طلبا منه شيئا، ويَسُبّهما ويهينهما إذا اختلفا معه في الرأي، ويضربهما ويؤذيهما إذا لم يطيعا له أمرا. وقد يغتصب أموالهما بالحيلة والدهاء، أو بتهديد السلاح، أو التخويف والإرهاب.

وتشمل القسوة في معاملة الوالدين حرمانهما من حقوقهما في الحياة الإنسانية الكريمة، وظلمهما وطردهما من البيت، أو وضعهما في حجرة صغيرة في البيت، أو منع الطعام والدواء عنهما. وغير ذلك من الإساءات.

وقد يقسو الابن (أو الابنة) على والديه بسبب قسوتهما عليه وإهمالهما له وهو صغير، أو بسبب غلظة قلب الابن وإدمانه على الخمور والمخدرات، أو خضوعه لتوجيهات زوجة شرسة قاسية القلب.

٥-أسلوب التفرقة في المعاملة:

ويقصد به معاملة الابن (أو الابنة) لأحد الوالدين معاملة مختلفة عن معاملته للوالد الآخر، وتفضيل أحدهما على الآخر. فقد يحب الابن والدته أكثر من والده، أو يود هذا أكثر من ذاك، أو يتواصل مع أحدهما أكثر من الآخر.

وقد تؤدي تفرقة الابن (أو الابنة) في معاملة والديه إلى إثارة الغيرة واضطراب علاقتهما الزوجية، وشعور أحدهما بالظلم والإحباط في علاقته بابنه أو ابنته وهو من العقوق أيضا.

ويشجع على التفرقة في معاملة الوالدين تعدد الزوجات، وظلم الوالد لإحدى زوجاته وأبنائه منها، أو قسوة أحد الوالدين على الأبناء وإهماله لهم وهم صغار، فينفرون منه، ويبتعدون عنه في الطفولة والمراهقة والشباب، ويعاملونه بقسوة وغلظة أو يهملون في رعايته وهو كبير في السن.

٦-أسلوب المن والأنين:

ويقصد به قيام الابن (أو الابنة) بواجباته في رعاية والديه، فيساندهما في الكبر، ويخدمهما في المرض والعجز، ثم يَمُن عليهما، ويكرر على مسامعهما "أنا عملت لكما كذا وكذا" أو "أنفقت عليكما أموالاً كثيرة" أو "سهرت عليكما ليالي طويلة" وقد يتبع المن بالأذى لهما، ويطلب منهما التسبيح بحمده وفضله عليهما.

وقد يشكو الابن (أو الابنة) ويئن من مشقة الرعاية والجهد فيها، والتعب في الخدمة، وارتفاع تكاليف المعيشة والعلاج، ويكثر الحديث عن تعبه ومرضه بسبب ما يبذله من جهد في خدمة والديه، ويكرر على

مسامعهما أنه أنفق المال، واقترض القروض، وضاعت عليه الترقية أو المكافأة في العمل بسبب انشغاله برعاية والديه. وما أقسى أن يقول الابن لوالديه "أنتما سبب مرضي وارتفاع الضغط والسكر عندي" أو "أنا صرفت عليكم الكثير وحرمت أولادي من أجلكما".

ويقوم هذا الأسلوب على غرس القلق والغضب في نفس الوالد (أو الوالدة) وزيادة همومه وأحزانه من خلال المن والأنين والشكوى من أعباء المعيشة والعلاج، فيشعر الوالد أنه عبء ثقيل على ابنه، وهذا من العقوق.

٧-أسلوب خفض الجناح:

ويقصد به معاملة الابن (أو الابنة) لوالديه معاملة حسنة فيخدمهما، ويوقرهما ويعظمهما، ويطيعهما في غير معصية، ويتفقد أحوالهما، ويسهر على راحتهما، ويفهم حاجاتهما ومطالب نموهما في مرحلة الكبر، ويتلطف معهما، ولا يقل لهما أف ولا ينهرهما، ويخفض لهما جناح الذل من الرحمة.

ويقوم هذا الأسلوب على تواضع الابن (أو الابنة) مع الوالدين، وعلى السمع والطاعة لهما فيما يحب أو يكره في غير معصية، والمداومة على برهما في كل شيء، فيجتهد في مساندتهما وتشجيعهما وحمايتهما وخدمتهما بإخلاص، ويقول لهما قولاً حسناً ليناً هيناً، ويحرص على إضحاكهما ولا يؤذيهما ولا يبكيهما. وهذا هو بر الوالدين.

معاملة كبار السن غير العاديين

وتطبيق "أسلوب خفض جناح الذل من الرحمة" في التعامل مع كبار السن أمرنا الله به في بر الوالدين والإحسان إليهما، واتفقت عليه علوم الشيخوخة، ونادى به خبراء رعاية كبار السن في المجتمعات جميعها: مسلمة وغير مسلمة، فهو الأسلوب الراقي في التعامل مع هذه الفئة، وفيه الخير لكل من كبير السن وأبنائه وأسرته ومجتمعه.

وتطبيق هذا الأسلوب مع كبار السن العاديين سهل، لأن كبير السن العادي سهل المعاشرة، يُعامل أبناءه بخلق حسن، ويشجعهم على بره وخفض الجناح له. أما تطبيقه مع كبار السن غير العاديين فليس سهلاً، لأن كبير السن غير العادي معقد الشخصية Difficult Personality، صعب المعاشرة، لا يرضى بسهولة، عنيف في انفعالاته، غريب في أفكاره، مندفع في قراراته، مزعج في تصرفاته، متقلب الأحوال والأطوار Bad temper.

وتكمن الصعوبة في معاملة كبير السن غير العادي في الجهد المطلوب في إرضائه والتفاهم معه، وعلاج مشكلاته وخلافاته، وتحمّل سلوكياته المزعجة. فهو في حاجة إلى معاملة خاصة، تقوم على الحكمة في إدارة الحوار أو النقاش معه، والقدرة على التسامح مع أخطائه وزلاته، والمهارة في التعامل معه "بأسلوب خفض الجناح"، والمثابرة على التفاعل معه تفاعلا إيجابيا، والتواصل معه تواصلا حسنا حتى يرضى.

قواعد عامة في التعامل:

ويقوم تطبيق "أسلوب خفض الجناح" في التعامل مع الوالد (أو الوالدة) غير العادي على عدة مبادئ نلخصها في الآتي:

١- الاستعانة بالله على بره ومقابلة السيئة منه بالإحسان إليه، التزاما بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان:١٥].

٢- تهيئة النفس للصفح عن إساءاته، والتسامح مع أخطائه، وقبول أعذاره، والتغاضي عن زلاته، ورفع الحرج عنه.

٣- بذل المستطاع في خدمته ورعايته، ومراعاة أحواله، وفهم نفسيته وحاجاته، وتجنب الشدة في نقده، والابتعاد عن تحذيره أو عتابه على الأخطاء (Marcell, 2001).

٤- تقبل اعتراضاته، وتحمل انتقاداته وإهاناته وسخطه، وتجنب خصامه والغضب منه، والبعد عن الجدال معه.

٥- الحرص على الائتلاف معه مهما كان الخلاف، والسعي إلى ترضيته مهما كان الغضب منه، ومبادرته بالهدية والكلمة الطيبة مهما كان الزعل عليه.

٦- تنمية قناعة الابن (أو الابنة) أن الوالد (أو الوالدة) هو الأصل الذي لا انفكاك منه، فيدرك -أي الابن- أن عِزَّهُ في عز والده، وذله في ذل والده.

٧- تجنب مقاطعته أو عدم التواصل معه مهما كانت الخلافات، وعدم إحراجه مهما كانت الأخطاء والعيوب، لأن ما يعيب الوالد يعيب ولده، والرابح في الخلاف بينهما خاسر، والمنتصر منهما مهزوم.

٨- الاهتمام به وإظهار المودة والمحبة له، والتعاطف معه، والاعتذار له وطلب الصفح منه في مواقف الخلاف. فكثير من الآباء والأمهات ترضيهم عبارات "أنا آسف، أنا مقصر، سامحني يا أبي...."

٩- حسن الظن به، وإبراز محاسنه وأعماله الطيبة، وطاعته وتنفيذ أوامره في غير معصية. فكثير من الآباء والأمهات تُرضيهم كلمات الاستحسان والثناء، والحديث عن الإنجازات التي حققوها في حياتهم.

١٠- الإكثار من استخدام كلمات "نعم - حاضر - أنا معك - أنا موافق - أتفق معك وغيرها"، والتقليل من استخدام كلمات "لا - أعترض - لماذا؟ غَلَط وغيرها" في التعامل معه. فكثير من الآباء والأمهات لا يقبلون اعتراض الأبناء عليهم، ويشعرون بالارتياح عندما يوافق الأبناء على ما يريدونه منهم.

قواعد خاصة في التعامل:

إذا كانت سلوكيات كبار السن العاديين متشابهة، وأساليب التعامل التي ترضيهم متقاربة، فإن سلوكيات كبار السن غير العاديين متباينة، وأساليب التعامل التي ترضيهم مختلفة، باختلاف سلوكيات كل منهم وتفاعله مع الأهل والأبناء.

وينقسم كبار السن وفق سلوكياتهم إلى ستة أنماط رئيسة، تدل على ستة أنماط في الشخصية، لكل منها حاجاتها، وأساليب التعامل معها (Marcell, 2001). ونناقش فيما يلي الخصائص البارزة في كل نمط وحاجاته وأساليب التعامل معه.

النمط الأول: الوالد (أو الوالدة) الاتكالي: الذي يغلب على تصرفاته التواكل Dependency behavior والاعتماد على شخص آخر في كل شيء، وعدم القدرة على مواجهة أي موقف بمفرده، والإصرار على وجود الابن (أو الابنة) بجواره دائما، والغضب إذا لم يجده معه أو قريبا منه، وقد يكتئب إذا وجد نفسه وحيداً، فيبكي ويمتنع عن تناول الطعام أو الدواء، وتسوء حالته النفسية.

ويحتاج هذا الوالد إلى مَنْ يفهم شخصيته، ويتقبل سلوكياته، فلا يغضب منها، ولا يلومه عليها، لأن الغضب واللوم لن يُغيرا من سلوكياته شيئا. وعلى الابن (أو الابنة) التواجد مع والده أطول فترة ممكنة، يحاوره ويشغله، ويبعد عنه الملل والرتابة، ويخفف عنه أوجاع المرض، ويشعره بالمساندة النفسية.

النمط الثاني: الوالد (أو الوالدة) المنفِّر: الذي تكون سلوكياته منفرة Turn off behavior، فهو عصبي سيئ الظن، لا يثق في أحد، كثير الشكوى من أبنائه سريع الغضب، وإذا غضب يرمي الأشياء ويكسرها ويضرب

الأبواب بعنف، ويسب ويتلفظ بكلمات غير مهذبة، وإذا اختلف مع أحد أبنائه خاصمه وطرده من البيت.

وعادة يسمع هذا الوالد ما يريد أن يسمعه، ويترك ما لا يريده، ويدافع عما يقول، ويثور إذا ناقشه أحد أبنائه فيما يقول، وقد يضربه ويسبه.

ويتعامل هذا الوالد مع الأمور على أساس أبيض وأسود، ولا يوجد وسط بينهما، فتكون أحكامه متطرفة في الرضا والسخط، فإن رضى عن ابنه (أو ابنته)، عدَّه أحسن الأبناء، ورفعه إلى أعلى عليين، ودعا الله له بالتوفيق، وإذا سخط عليه عدَّه أسوأ الأبناء، وجعله في أسفل سافلين، ودعا الله أن يخسف به الأرض.

ولا ينفع مع هذا الوالد الحوار والنقاش، لأنه يجادل وينكر ما يقول، وقد يسقط ما بداخله من غضب على ابنه (أو ابنته)، ويتهمه بالعقوق، ويشكو من غضب الابن وعصبيته في التعامل معه.

ويحتاج الوالد المنفر إلى مَنْ يفهم سلوكياته، ولا يعترض عليها، ولا يناقشه فيها، ولا ينتقد شكوكه، لأنه لن يتخلى عنها، ولن يغير موقفه، ولن يفهم وجهه نظر الآخرين، لأنه لا يسمع إلا صوته، ولا يقتنع إلا برأيه هو. ويجب الاستعانة بالأهل والأصدقاء والمتخصصين في الإرشاد النفسي للمساعدة في الحوار معه، ومحاولة ترضيته وتهدئته.

النمط الثالث: الوالد (أو الوالدة) الأناني: الذي تكون سلوكياته متمركزة حول ذاته Self-centered behavior، ويفسر الأحداث وفق تأثيرها عليه وليس تأثيرها على الآخرين. وهو حساس لحاجاته، حريص على مصلحته، ولا يهتم كثيراً بحاجات الآخرين ومصالحهم. ويرى نفسه أحياناً إنساناً كاملاً في كل شيء فيعجب بها وبإنجازاته، وأحياناً أخرى يرى نفسه إنسانًا فاشلاً لا يصلح لأي شيء، وتشوِّه صورته عن نفسه

Destructive self image فينتقدها ويحقرها، ويحط من شأنها، ويسخر منها.

والوالد من هذا النمط أناني يسحب اهتماماته بالموضوعات الخارجية إلى الاهتمام بذاته، وهو عادة يصغى إلى مشكلات الآخرين، ولا يفصح عن مشكلاته، إلا إذا فاض به الكيل، عندئذ يحكي مشكلاته لكل من يلقاه، ويعلن أسرار عائلته، ويُشَهِّر بأولاده وأهله وأقاربه.

ويحتاج هذا الوالد إلى من يساعده على إرضاء غروره، ويستمع إليه، ويحترم مشاعره وأفكاره وانفعالاته ولا يحرجه، ويفهم حاجاته، ولا يعترض عليه، لأنه إذا اعترض عليه أحد تحول إلى الدفاع عن نفسه وعاند وخالف، ورفض المساعدة حتى ولو كان في حاجة شديدة إليها.

النمط الرابع: الوالد (أو الوالدة) المتسلط: الذي يسعى إلى السيطرة Controlling behavior من خلال الضغط على الأبناء والتملق والنفاق تارة، والتهديد وغرس القلق والشعور بالذنب تارة أخرى. وهو يخاصم ويقاطع أبناءه بطريقة غير مهذبة، ويحقرهم ويؤنبهم على كل ما يعملونه، ويسقط ما فيه من عيوب عليهم، ويحارب عيوبه فيهم، ويحط من شأنهم، ولا يتحمل اختلافهم معه في الرأي، وينتقد أسلوبهم في المعيشة وتربية الأولاد وإدارة بيوتهم، ويتدخل في علاقتهم بأزواجهم وزوجاتهم، ويغضب إذا تدخل أحد في شئونه أو منعه من أي شيء يريده، أو أجبره على عمل أي شيء لا يرغب فيه، فيثور على ابنه (أو ابنته) إذا منعه من التدخين مثلا، أو إذا طلب منه تناول الدواء في موعده وفق إرشادات الطبيب.

ويُصر هذا الوالد على تنفيذ الأوامر دون مناقشة، ولا يقبل التأخير أو التأجيل مهما كانت الأعذار، ويعامل ابنه كطفل يتسلط عليه، ويتخذ عنه القرارات، ويحدد له طريقة التنفيذ، ويغضب منه إذا لم يلتزم بالطريقة التي حددها له، ويقاطعه في الحديث بطريقة غير مهذبة، ويستخف بآرائه.

ويحتاج هذا الوالد إلى مَنْ يطيعه وينفذ أوامره، ولا يدخل معه في نقاش أو حوار أو اعتراض، ويعامله معاملة هينة لينة، تُرْضي رغبته في السيطرة في حدود الطاعة التي ترضي الله، وتجعله باراً بوالديه.

النمط الخامس: الوالد (أو الوالدة) المؤذي لنفسه: الذي يسلك سلوكيات مدمرة أو مؤذية لنفسه self- destructive behavior من إدمان المخدرات أو الكحوليات أو الحبوب النفسية، أو الإسراف في التدخين، أو الإكثار من شرب الشاي والقهوة، أو استعمال الأدوية بطريقة خاطئة، أو الشراهة في الأكل، أو الامتناع عن تناول الأغذية المفيدة، أو عدم الالتزام بنظام الغذاء الذي وصفه الطبيب، أو عدم الانتظام في تناول الدواء في مواعيده، وغيرها من السلوكيات المؤذية له.

ويشعر هذا الوالد بالملل والفراغ، ولا يستطيع تغيير أهدافه في الحياة، ويشعر بالضياع والسخط والاكتئاب، وقد يبحث عما يفرحه ويشغله في مرحلة الكبر، فيتعلم سلوكيات سيئة في الحياة، تؤذيه وتؤذي من حوله، وقد تلعب به امرأة لعوب، فينشغل بها، ويجري وراءها، ويخسر سمعته وأهله بسببها.

ويحتاج هذا الوالد إلى من يحميه من نفسه، ويساعده على التخلي عن أسلوبه الخاطئ في الحياة، والإقلاع عن عاداته السيئة، ويشغله بما هو مفيد، ويبعد عنه الملل والرتابة في مرحلة الكبر،ويدمجه في الحياة الأسرية ومع أصدقاء من الصالحين.

النمط السادس: الوالد (أو الوالدة) الخوَّاف: الذي تدل سلوكياته على قلقه وخوفه Fearfulness behavior، وشعوره بعدم الأمن والأمان، وعدم الاستقرار في حياته الأسرية، فهو مهموم دائماً، وقلق وحزين وقليل النوم، يخاف المرض والموت، وينشغل بمشكلاته الصحية الحقيقية والمتوهمة، فإذا مرض زاد قلقه، وتحول من طبيب إلى آخر، لعله يجد علاجاً سحرياً لهذا

المرض، الذي قد يكون متوهماً، ويلجأ إلى المشعوذين والسحرة والمنجمين، ويتجاوب مع الخرافات والشائعات.

ويغضب هذا الوالد ممن يستخف بمخاوفه، أو يلومه عليها، لأنها بالنسبة له مخاوف حقيقية، تسبب له الهلع والفزع، وتشغل تفكيره، ويحتاج إلى من يفهم هذه المخاوف، ويساعده على معرفة أسبابها، والتخلص منها، أو التخفيف منها. فمخاوف كبار السن مثل مخاوف الأطفال لها أسباب جسمية ونفسية واجتماعية، وتحتاج إلى التشخيص والعلاج بمعرفة المتخصصين في الإرشاد والعلاج النفسي والطب النفسي.

تلخيص

رعاية كبار السن عملية مركبة من خمس عمليات رئيسة متداخلة ومتكاملة هي: المساندة للوالدين في السراء والضراء، وتشجيعهما على ممارسة أدوارهما الاجتماعية، ومساعدتهما عند العوز، وحمايتهما مما يؤذيهما، وخدمتهما في المرض والعجز.

وينقسم كبار السن وفق حاجتهم إلى عمليات الرعاية الخمس إلى ثلاث فئات: كبير السن العادي لا يحتاج من أبنائه إلا المساندة والتشجيع، وكبير السن غير العادي الذي يحتاج إلى المساندة والتشجيع والمساعدة الحماية، وكبير السن العاجز الذي يحتاج إلى عمليات الرعاية الخمسة جميعاً.

وتختلف رعاية كبار السن عن تنشئة الأطفال في خمسة جوانب هي:

١- منطلقات الرعاية تختلف عن منطلقات التنشئة.

٢- أهداف الرعاية ودوافعها تختلف عن أهداف التنشئة ودوافعها.

٣- مشاعر كبير السن في الرعاية تختلف عن مشاعر الطفل في التنشئة.

٤- خدمة كبير السن في الرعاية تختلف عن خدمة الطفل في التنشئة.

٥- يختلف الكبار عن الصغار في الحاجة إلى خدمة الآخرين.

ويتبع الأبناء عدة أساليب في معاملة الوالدين، منها: الإهمال، والتذبذب، والتسلط، والقسوة، والمن والأنين، والتفرقة في المعاملة، وخفض الجناح لهما. وفي الأساليب الستة الأولى عقوق للوالدين، أما الأسلوب السابع ففيه بر الوالدين.